

جامعة ابن يوسف
بين أمجاد الماضي وتطلعات المستقبل

للأستاذ محمد الحبيب الفرقاني

الأستاذ محمد الحبيب الفرقاني كاتب وصحافي لامع، عضو المكتب السياسي لحزب الاتحاد الاشتراكي، عضو المجلس الوطني لحزب الاستقلال سابقا، مناضل كبير تعرض لعدة اعتقالات من طرف الاستعمار، تقلب في عدة وظائف في التعليم والتربية، وكان نائبا في البرلمان، وله مجموعة من الأبحاث والكتب والدواوين الشعرية، وهو خريج جامعة ابن يوسف بمراكش، وهو النائب الأول لرئيس جمعية إحياء جامعة ابن يوسف.

ماذا عساني أقول عن مدينة مراكش؟ ماذا أقول عن طلبة وعلماء وفقهاء وصلحاء مراكش؟ وعن قادة وأئمة، وساسة مراكش؟ وعن الجامعة اليوسفية العلمية، وهي المؤسسة الثقافية التي أسستها ورعتها دولة المرابطين منذ ثمانية قرون؟

بداية... اختصر، وأنتزع جذاذات مختزلة، من هذا الصرح التاريخي الضخم، الذي يسمونه مراكش، بيوسفها وابن يوسفها... وأقول :

مراكش.... في ذاكرة الزمان، وفي مسيرة العنفوان الحضاري المغربي، السفينة التي أقلعت بالتاريخ المغربي المسلم وركبت محيط العلم، والمعرفة، والسياسة، وألقت مراسيها على شواطئ المدنية، والحضارة، والأدب، والثقافة، تعاليا على أكتاف زمن طويل.

مراكش التي أتاها، ورفع وجودها الأسمران الصحراويان يوسف ابن تاشفين، وابنه علي؛ فجعلا منها غرفة العمليات الكبرى،

والتصحيحات الضرورية، في تاريخ الإسلام، ومسيرته السياسية بالمغرب، كما جعلا منها منذ البداية، المركز الإسلامي الذي رفع لواء العظائم والفتوحات، السياسية، والدينية، وحمل مشعل الثقافة والحضارة الإسلامية، في مجموع منطقة غرب البحر الأبيض المتوسط، شمالا وجنوبا، وإلى أبعاد عميقة، في غرب إفريقيا، وطيلة نحو أربعة قرون... أو تزيد!

وكان من إنجازاته الخارقة لصالح الوطن والإسلام أنه :

– بعد التمزقات، والصراعات السياسية التي انساق إليها، وكرسها أبناء ادريس الثاني 188 – 305هـ وما تلاها من إمارات، وولايات هزيلة في كل مكان، مزقت وحدة المغرب السياسية، وجاءت في ظلها النوازع المذهبية، خوارج / شيعة / برغواطية إمارات، آل ابن العافية – مغراوة بني يفرن – بني مدرار.

كما ضربت من جهة أخرى الوحدة الدينية والمذهبية، فجاءت مراكش المرابطية، فصرعت الطامحين، واقتلعت التمزق، وكنست النزاعات الطائشة، فحققت لأول مرة في تاريخ المغرب الإسلامي الوحدة المثلثة الشاملة :

– الوحدة الترابية من شنقيط إلى طنجة.

– الوحدة الدينية باكتساح البرغواطيين، وبقايا الخوارج والشيعة من الأرض المغربية.

– الوحدة السياسية بكنس البلاد من إمارات الشطط والاستعلاء المغرور.

فعاش المغرب لأول مرة وحدته المثلثة الكاملة، التي ثبت المرابطون ومن مراكش بالذات أصولها، ورفعوا بنيانها وفجروا في بناء التاريخ المغربي قوتها واندفاعها.

هذا ولم تلبث عبقرية الجنوب المغربي التي تفجرت في مراكش أن أخذت طريقها إلى التفرع والانطلاق! وإذا بمراكش السمراء – بعد إقرار الوحدة الذاتية، والاستقرار الداخلي، تتجه إلى الشمال فوق البوغاز

(الأندلس) فتستأصل التمزق السياسي والتبذخ الفاسد، الذي غرق فيه ملوك الطوائف، وأغرقوا أنفسهم، وتحيلها وحدة سياسية، وجوهرة حضارية، في كفالة وصحيفة مراكش... وإذا معركة الزلاقة العظيمة والفاصلة (581هـ) تضيف ثلاثمائة سنة أخرى من عمر ونفوذ دولة الإسلام والمسلمين بالأندلس!

ولم تلبث هذه الْ (مراكش) العملاقة أن ضمت إلى سلك ومسيرة الوحدة، وتحت نفوذها – وعلى وبأيدي وَمَضاء الموحدين – بعد ذلك ومن بعدهم، كلا من الجزائر وتونس على عهد الموحدين، وتباعاً المرينيين! وأصبحت الجزائر وتونس ولايات مغربية، أو بالأصح مغاربية، يعين عمالها وولاتها من مراكش، فتحققت لأول مرة في التاريخ، بعد مرحلة الفتح الإسلامي في القرن الهجري الأول – وحدة المغرب العربي – بفعل وكفالة دولة مراكش، عاصمة الوحدة والقوة الإسلامية في شمال وغرب إفريقيا.

وامتدت حركة الوحدة والتوحيد بعد ذلك إلى جنوب الصحراء، فكانت السينغال وغينيا، وغانا، ومالي جزءا من امبراطورية الوحدة التي قادتها مراكش، على عهد المنصور السعدي، أحمد الذهبي (1012) فاتح الصحراء والجنوب الأقصى وراء موريتانيا.

هذه مراكش في ماضيها الإشراقي الطموح! وهذا دفتر تاريخها الذهبي، وملامح مجدها السياسي، والثقافي، والحضاري المستنير اللماع، ولمدة أربعة قرون أو تزيد.

وجاءت بعد ذلك مرحلة الارتداد في تاريخ مراكش وفي دورها الريادي، في القيادة السياسية، والبناء الثقافي والحضاري، لدولة الوحدة والسيادة، فأخذها التراجع والتقلص والانكفاء مع عموم المنطقة، وكافة العالم الإسلامي، ابتداء من القرن الحادي عشر الهجري – السادس عشر الميلادي – ابتداء من سقوط الأندلس، وانهيار دولة السعديين، وجاء الاستعمار العثماني ثم الفرنسي ففكّكا المنطقة وضربا وحدتها وقوتها...

وواصل الاستعمار الفرنسي حملته لاحتواء المنطقة، فاحتل المغرب بعد الجزائر وتونس؛ وكانت مراكش آخر جزء منها سنة 1912، وتسلط في ظله، وبعونه وتخطيطه على مراكش، لقمع أهلها، ومحو تاريخها، الباشا التهامي الجلاوي المزواري، والجينرال مانجالْ ودوتفيل رئيس ناحية مراكش، وجملة من الإقطاعيين، والعملاء المغاربة، فأحالوا الصورة وغيروا المعالم الروحية والثقافية للمدينة، وعموم الجنوب، وتركوا في النهاية مراكش السياسة والحضارة والثقافة وبناء التاريخ.. صورة بئيسة للضعف والمسكنة والجمود والاستسلام.

هذا وإن الدور المتميز الذي قامت به جامعة ابن يوسف منذ بداية القرن السادس الهجري، وما ضمت، وخرجت من العلماء، والفقهاء والأدباء والأساتذة، والطلبة والدعاة والمربين، سواء في التربية والتثقيف، أو في السياسة والإدارة، والتأطير... لمن شأنه أن يثير الحساسات والتعصبات، ويدعو إلى التنافس الذي هو في أصله ظاهرة صحية، إذا ابتعد عن التعصب، والتنقيص والعداء. تنافس بين البلدان، بين المغرب والأندلس، وبين المغرب ومصر، وبين المدن سلا وقرطبة وإشبيلية، وبين غرناطة سلا ومالقة، وبين مراكش وفاس، وأخيرا بين ابن يوسف والقرويين.

وإذا كانت مراكش العاصمة السياسية النافذة في المنطقة على عهد ثلاث دول كبرى في تاريخ المرابطين، والموحدين والسعديين وفترة من عهد المرينيين. وكانت طيلة نحو من ثلاثة قرون، مركز النفوذ السياسي والإشعاع العلمي والثقافي، فأصبحت مركزا للهجرة والثقافة، والتعلم يقصدها العلماء والفقهاء والأدباء، من المغرب والأندلس، ومن المشرق، وقد آوت عددا كبيرا من فطاحل العلم، والفكر والفقه والفلسفة، والرياضيات والطب، والحكمة أمثال ابن رشد الجد، وابن أبي الخصال، وابن الجد، وابن القبرطة، وابن طفيل، وأبناء زهر : فقد جاء تأسيس جامع أو جامعة ابن يوسف استجابة لضرورة وجود مركز ثقافي، ومعهد علم لتلاقي هذه الطاقات العلمية واستيعابها في مجمع كبير،

تبث منه معرفتها وكفاءتها للأجيال خلال القرن الحادي عشر الميلادي وما بعده، السادس الهجري، متزامنا مع ظهور الجامعة في أوربا.

وإذا كان جامع القرويين بفاس، قد سجل بدوره نشاطا ثقافيا كبيرا، واتساعا علميا، ومساهمة واسعة، في الإشعاع العلمي في مجموع المغرب، خاصة في الشمال – وكان ذلك بالخصوص أو في القرن الثامن على عهد المرينيين، حينما اتخذوا مدينة فاس عاصمة لهم، وما بعد القرن العاشر، وبعد انطلاق جامع ابن يوسف بنحو ثلاثة قرون... فإن بعض الناس، خاصة في العصور الأخيرة، ضخموا هذه المكانة العلمية للقرويين. فأرادوا أن يجعلوا من القرويين الجامعة العلمية الفريدة في المغرب ومن مدينة فاس، المدينة الجامعية التي سبقت كل المدن، والجامعات في العالم الإسلامي!... بل ذهب هؤلاء في عصبية متشنجة وروح شوفينية، احتكارية. ومعلقة فحصروا المركزية العلمية في فاس، واعتبروا القرويين أقدم جامعة في العالم الإسلامي، وأكبر معهد للعلم والثقافة العامة، في تاريخ المغرب كله.. وهذا غير صحيح بالمرة، وإن كان واقعا في فترة معينة، على عهد المرينيين لا غير كما ذكرنا.

ولو أن المجال لا يتسع الآن لفحص ومناقشة هذه الآراء والمزاعم وتفسيرها، وتبيان القسم الصحيح منها والقسم المضخم المنفوخ... فإنه لابد مع ذلك تنويرا وتبصيرا، أن نوضح بخصوص ذلك بعض الحقائق التاريخية، التي لا يجوز أن تطوى بالمرة، وترسل فوقها الأغطية المختلفة للردم، وصرف الأعين تضليلا وتغطية، وقلبا لحقائق التاريخ العلمي والسياسي بالمغرب.

ست حقائق... من صلب الواقع والتاريخ :

أجل هنا يردد الباحثون والمحللون آراء مختلفة، حين يعرضون للمقارنة بين ابن يوسف والقرويين، ويذهبون مذاهب مختلفة، مشوبة في أكثر أحوالها بروح العصبية الجغرافية، أو العنصرية البشرية، أو المعرفية، خاصة من طرف بعض المتعصبين، غير أن واقع التاريخ

المتحقق على الأرض، وشواهده الناطقة، تكشف عن مجريات التاريخ، ومن مسلسل الأحداث، والعلاقات بين الناس، وواقعهم عن جملة من الحقائق الحية، نجملها في ست حقائق :

الحقيقة الأولى :

القرويين ليست أقدم جامعة، لا في التأسيس، ولا في انطلاق الدراسات العلمية :

يقال عن القرويين أنها أقدم جامعة، وهذا القول غير صحيح تاريخيا، حيث تبدو هناك مقارنة تاريخية قوية فاصلة بين المؤسستين في موضوع الأقدمية، والأقدمية هنا تنصب على نوعين :

1 - أقدمية التأسيس التاريخي، أو البناء المادي للمؤسسة.

2 - وأقدمية ممارسة التعليم والتدريس فيها :

فعن أقدمية التأسيس المادي، نعلم أولا أن جامع الزيتونة بتونس أسس سنة 116هـ أي 129 سنة قبل القرويين، بل وقبل تأسيس مدينة فاس بأكملها بـ 76 سنة.

ومن جهة أخرى نرى أن القرويين أسبق حقا من ابن يوسف في التأسيس البنائي لمسجد القرويين بفارق 269 سنة، أي الفارق الزمني ما بين 245 سنة تأسيس جامع القرويين إلى 514 سنة تأسيس جامع ابن يوسف.

ولكن المفارقة الكبرى في الأقدمية التعليمية، أي الأسبقية في ممارسة التعليم، والتدريس أعني التحول بالمسجد من مجرد مركز للصلاة والعبادة، إلى معهد رسمي ثابت للدراسة، والتربية، والتعليم.

وهكذا يتضح في أن مسجد القرويين الذي أسسته فاطمة الفهرية سنة 245هـ - 859م إنما أسس أصلا كمسجد للصلاة والتعبد، ولم يكن القصد منه بحال، آنذاك توظيفه للتعليم والتدريس، وبث العلم. ذلك أن الوضع الاجتماعي والسياسي والثقافي بالمغرب في هذه الفترة ما يزال مضطربا، وفي مرحلة التكوين والتأسيس في مناخ ما يزال فيه

فضاء التأسيس الإسلامي في عموم المغرب، في مرحلة التثبيت، ولا مجال لأي اهتمامات ثقافية أو نشاط تعليمي مرسم، لا في القرويين ولا غير القرويين من المساجد...

ولذلك، وعلى عكس ما ذكر الأستاذ عبد الهادي التازي في كتابه «جامعة القرويين» فإن هذا المسجد الذي كان أول بيت أسس في فاس لعبادة الله، لم تتح له الظروف المحيطة السياسية و الاجتماعية والثقافية التي لا تزال في دور التكوين والترتيب والبداية أن يتحول من مسجد للصلاة إلى جامع مهمته التعليم والتثقيف، فأحرى التدريس والتخريج، إضافة إلى أنه ليس هناك في تاريخ تأسيسه لا أساتذة ولا معلمون للقيام بالتدريس.

وطوال عهد الأدارسة الذي لم يكن بحال عهد علم، ولا دراسة ولا تثقيف، بمقدار ما كان فترة تأسيس الدولة، وصراع بين أبناء إدريس... هذا الصراع الذي أدى إلى تمزيق المغرب لأول منطلقه في عهد الإسلام، إلى إمارات صغيرة في كل جهة مستغرقة في التنازع، والصراعات بينها... (مغراوة – بني يفرن – آل العافية – بورغواطة – بنو مدرار إلخ...) وإغراق المغرب لمدى أكثر من قرنين في متاهات ونزاعات فارغة شخصية وقبلية، لا يمكن أن توفر بحال ظروفا ولا شروطا للتفكير في علم أو ثقافة، ولا تحويل مسجد إلى معهد التربية والتعليم. فمرَّت ثلاثة قرون عجاف كاملة من تاريخ المغرب الإسلامي لم تعرف طوالها مع القرويين سوى الصلاة والعبادة، لا دراسة علمية، ولا تعليما خاصا، إلى أن انطلقت دولة المرابطين الصحراوية، من الصحراء شنقيط، وقضت على الصراعات المحتدمة بين الإخوة، ووحَّدت البلاد، وأسست عاصمة رفعها مسجد جامع ابن يوسف، الذي بدأ منذ البداية في نشر العلم، والمعرفة، والتنوير الديني من أول يوم لتأسيسه.

وإذ فقدت فاس مكانتها كعاصمة سياسية، منذ أن وزع أبناء إدريس المغرب بينهم، وفرقوا وحدته، لم يتأت لمسجد القرويين طيلة أربعة قرون ونصف بعد ذلك، أن يمارس إلا وظيفة العبادة والصلاة، والأذكار،

وتلاوة القرآن أي من بدء تأسيسه سنة 245هـ إلى القرن السابع الهجري، إلى أن تأسست دولة بني مرين، واتخذت فاسا عاصمة لها؛ فأخذت حينذاك موقع التركيز والانبعاث السياسي والثقافي الأول، وانطلقت في ظلها القرويين أول انطلاقة نحو العلم، والدراسة والتعليم، فنمت بسرعة، ولم تلبث أن تطورت إلى معهد واسع، ثم إلى جامعة عامة للعلم والمعرفة والتربية والتثقيف.

الحقيقة الثانية :

الجامع والجامعة... والمعبد والنادي والمركز العام للبناء والترجمة من أول يوم لتأسيسه :

جامع أو جامعة ابن يوسف : مؤسسة علمية دينية ثقافية تاريخية، تحمل في اسمها اسم مؤسسها اللمتوني المرابطي، علي بن يوسف بن تاشفين ذلك اللمتوني الذي ليس في سلوكه ملكا ولا سلطانا، ولكنه داعية إسلامية، ومرشد ديني، انطلق كأبيه من الصحراء ليواصل مهمته، ولأن الدولة قد تأسست الآن، وحققت الوحدات الثلاث للدولة وللشعب معا، وتركزت في عاصمتها الناشئة، فهي في أمس الحاجة إلى أن تمارس وتواصل مهمتها في الدعوة والتربية، وتؤدي رسالتها في التثقيف الديني، والمعرفي للشعب، وفي الجهاد لنشر الإسلام، وتعزيز نفوذه وصيانة طهارته، خاصة ونحن نعرف جميعا أن هذه الدولة قامت أول ما قامت وأساسا على مهمة الدعوة، والتربية، والتثقيف الشعبي، بقيادة داعيتها ومؤسسها الروحي عبد الله بن ياسين.

وإذا كان المسجد هو الوسيلة والأداة الوحيدة التي ملكها المسلمون واستعملوها ووظفوها في كل العصور الإسلامية من مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة. إلى مسجد ابن يوسف بمراكش لهذه المهمة، مهمة الدعوة والتربية والتثقيف، والتوحيد الشامل للرأي الشعبي العام... المسجد الذي ليس في المنظور الإسلامي الأصيل فقط مركزاً للصلاة والذكر والعبادة، ولكنه إلى ذلك، ناد عمومي للتعليم

والتربية ومركز جماعي واجتماعي للتنوير والتوعية والإرشاد العام، وأيضا لمناقشة وممارسة ومدارسة قضايا المجتمع وهمومه المختلفة وإعطاءا للتوجيهات الإسلامية اللازمة بشأنها، وكان للمسجد في تاريخ الإسلام كله دور إيجابي فعال، دور المؤسسة الروحية الثقافية التي تضمن وحدة المجتمع واستقلاله، ووحدة عمله وهدفه وقواه.

ولذلك أصبحت مراكش الحديثة، في ظل عهدها الأول والجديد، العاصمة السياسية لكل من المغرب والأندلس، وفترات طويلة لإفريقيا الشمالية بأجمعها، ومهدا جديدا للعلم والثقافة، وأصبح العلماء والأدباء يتواردون على هذه العاصمة الناشئة، وكان من ضرورة الحضارة للسلطان المرابطي علي بن يوسف أن يبادر إلى تأسيس مسجد كبير في وسط المدينة سنة 514هـ موافق 1120م لسد هذه الحاجة وتوفير ناد ومنبر ومعهد للعلم، ومرجع للتربية والتعبد، فكان هذا الجامع الجامعة الذي يحمل اسمه إلى اليوم، والذي مارس مهامه الجامعية هذه، من أول يوم لتأسيسه.

ولم يلبث أن أصبح معهدا جامعا للعلم والدراسة والثقافة ومركزا لتخريج العلماء، والفقهاء، والأدباء، والأطباء، والرياضيين والدعاة والمصلحين المربين، وتوسع الدور، وارتفع إشعاع الجامع اليوسفي مع الزمان، في مجموع المنطقة، وبعد دولة المرابطين التي لم تعمر طويلا (لم تعش إلا 70 سنة) جاء الموحدون! والتوحيد هذه المرة في العقيدة، وارتفع جامع ابن يوسف في عصرهم إلى درجة جامعة علمية كاملة، بكل المواصفات اللازمة، وإلى مركز معرفي نابه في مجموع المنطقة محيط الدولة الموحدية الواسعة الأطراف.

هذا، وقد وقع توطيد التوسع السياسي النافذ في مجموع منطقة المغرب العربي والأندلس، وجمعها جميعا في دولة واحدة تقودها وتنور سبيلها مراكش...

وقع الازدهار الحضاري والثقافي والعلمي الفائق الذي عرفته هذه المدينة بتوارد أفواج من فطاحل العلماء والأدباء وأئمة الفكر، والأدب،

والدين، والسياسة، من كل جهة، فأصبحت المدينة مجمعا ثقافيا وجامعة علمية حقيقية... كان لابد أن تنمو، ويتسع في هذا الفضاء العلمي والثقافي دور المسجد الذي أسس، ويتفجر بالمعرفة، والعلم، وبالتربية، والتثقيف الديني والسياسي والمعرفي، ويضم مجموعة من كبار الأساتذة، وفطاحل العلماء، يلقون الدروس والمحاضرات، ينشرون المعرفة بكل أوجهها، وفنونها، ومعالمها، يكفي أن نذكر منهم الإمام الفيلسوف الفذ ابن رشد وأبا بكر بن طفيل، والطبيب عبد الملك بن زهر... وغيرهم كثيرون.

الحقيقة الثالثة :

ولم تبدأ القرويين مسيرتها كجامعة للدراسات والتعليم إلا في القرن السابع الهجري :

إذ ذاك، وابتداء من القرن السابع الهجري بعد أن انطلقت الدراسات العلمية في ابن يوسف، وازدهرت وتحول إلى جامعة علمية حقيقية، استقبلت وآوت الكثيرين، وامتد إشعاعها العلمي الثقافي في مجموع منطقة غرب إفريقيا وأوربا، وبعد أن تأسست دولة بني مرين، تأَتَّتْ الظروف ليبعث مسجد القرويين ويدخل لأول مرة حلبة العلم والتعليم، وأخذ المسجد يتحول خطوة خطوة وبسرعة فائقة، إلى معهد للدراسات العلمية، والفقهية، والأدبية، وأخذ يمارس مهمته العلمية بالكامل واستفاد من نمو نفوذ وقوة الدولة المرينية، ومن اتخاذها مدينة فاس عاصمة سياسية وإدارية، ومن تطورها السريع إلى دولة كبرى، قادت أقطار شمال إفريقيا لفترة خاصة، مثلما كان الأمر على عهد الموحدين، فنما دور المسجد الجامع للقرويين، وامتد إشعاعه العلمي والثقافي إلى مجموع المنطقة وتقاطرت عليه وفود العلماء والفقهاء والأدباء، وجموع الطلبة من جميع أنحاء المغرب خاصة من الشمال، ونبغ من بين سواريها من فطاحل العلماء والفقهاء الكبار، وتخرج منها جهابذة من نبغاء في العلم والفقه والفكر والسياسة ومختلف العلوم، وأصبحت القرويين قبلة

العلماء، والمفكرين، والأدباء، وعاصمة للفكر والأدب، إلى جانب العاصمة السياسية المزدهرة في فاس؛ وآوت واحتضنت الكثير من العلماء والأدباء الوافدين للعاصمتين العلمية والسياسية؛ فأقام بها ابن خلدون لمدة سنتين؛ كما قصدها لسان الدين ابن الخطيب، وكثير من علماء الأندلس، وأفذاذ الفطاحل في كل التخصصات العلمية والفنية والدينية.

هذا على حين تسبب تحول الدولة ومركز السلطة من مراكش إلى فاس، في تقلص دور ابن يوسف وتراجع إشعاعه العام نسبيا في هذه الفترة، وتحت ظروفها المحيطة، دون أن يتوقف أداؤه الثقافي، أو تنسحب أو تنطفئ مهمته العلمية أو تتراجع كثيرا.

الحقيقة الرابعة :

وانبعاث جديد بعد تراجع على عهد السعديين :

إن جامع ابن يوسف بعد فترة التراجع التي عرفها نسبيا على عهد بني مرين، لم يلبث من جديد أن استرجع دوره الكامل، ومكانته الإشعاعية الكلية، مع حكم السعديين الذين اتخذوا من مراكش عاصمة لهم، خاصة على عهد أحمد المنصور الذهبي في القرن التاسع الهجري، حينما كان العالم الكبير أحمد بابا السوداني يلقي دروسا خاصة في مسجد ابن يوسف، وكان للعلماء وطلبة ابن يوسف، حضور ومشاركة في النشاطات الثقافية والمهرجانات الأدبية، والشعرية، التي كانت تنظم باستمرار في قصر البديع بمراكش، خاصة حفلات المولد النبوي.

وكانت هذه الفترة السعدية هي الجولة العلمية، وحركة الإشعاع الثقافي الثانية، التي حققها وقادها جامع أو جامعة ابن يوسف، بعد أن حقق وقاد بصفة أكثر عظمة، واتساعا، الجولة الأولى على عهد دولتي المرابطين والموحدين. كما سبق القول وببعد ثقافي عربي إسلامي في مجموع المنطقة أكثر من قرنين.

الحقيقة الخامسة :

وابتدأ التراجع فيهما معا، ابتداء من القرن الحادي عشر :

بعد القرن العاشر الهجري، دخل المغرب مرحلة سياسية جديدة تميزت بالضعف والتقهقر بغلبة السياسة، وطغيان الاستبداد، وغلبة الطغيان الفردي في مصالح الدولة، وتوجهاتها، وكان ذلك من جهة أخرى، سيرا في سياق التخلف والتقهقر، وسيادة الجمود، والتحكم، الذي ضرب العالم الإسلامي كله، بتأثير الحكم العثماني أولا، ولعدة قرون من جهة، وسيطرة الاستعمار الأوربي على كل أرجاء العالم الإسلامي والعربي دائما في المقدمة، من جهة أخرى.

وفي ظل هذا التراجع السياسي، والاجتماعي، والثقافي الشامل، كان لابد أن ينال كلا من جامعتي ابن يوسف والقرويين نصيبهما الوافر من الجمود الفكري، إضافة إلى تميز أغلبية الفقهاء والعلماء ومن خلفهم الطلبة على نفس السياق، فكان لابد أن يتراجع المستوى العلمي والفقهي والثقافي عموما في المؤسستين وتراجع مستوى الدراسات الفقهية، وجمدت على كتب تقليدية جامدة ومفاهيم متخلفة ومضامين متحجرة.

ولكن مع ذلك، ومع هذا التراجع المفروض في المستوى العلمي والثقافي، فقد ظل الاحتفاظ في نفس الوقت وفي الجامعتين معا بالاستمرار في تأطير الطلبة الأفاقين بالخصوص، واستمرت الدراسات الفقهية والعلمية بكل مراجعها وكتبها وقواعدها المعتادة، لكن مع تخلف في المستوى وتراجع في المضمون إلا لاستثناءات في بعض العلماء والأساتذة، الذين شذوا عن الوضع السائد والمحيط بقوة فكرهم، وسعة علمهم وكبير طموحهم، وهم قليل، فكان أن ظل الطلبة بالآلاف أحيانا يسكنون أحياءهم السكنية، المدارس، ويملأون دوائر الدروس العلمية في الجامعتين ابن يوسف والقرويين وأحيانا كثيرة في مساجد إضافية.

وجمدت الدراسة على دروس النحو، (الأجرومية والألفية، ولامية الأفعال) وعلى فقه العبادات وابن عاشر والشيخ خليل، ورسالة ابن زيد القيرواني والميراث «منظومة الرسموكي» والأدب «مقامات الحريري –

والكامل للمبرد» والحساب والتوقيت» المقنع للرسموكي – ودروس خاصة في التفسير والحديث والسيرة النبوية، ودروس في التاريخ، تاريخ المغرب وبعض الدول الإسلامية الكبرى، والجغرافيا العامة. ولكي نتصور مدى التخلف الذي أصاب مفهوم ومحتوى ومستوى التعليم في الجامعتين القرويين وابن يوسف، نذكر هنا المرسوم الذي أصدره السلطان محمد بن عبد الله العلوي باعتماد كتاب دليل الخيرات ككتاب معتمد للدراسات الدينية في الجامعتين، (انظر الاستقصاء).

الحقيقة السادسة :

ابن يوسف جامعة للدراسات العلمية... ومعهد لتكوين أطر ومسيري الدولة كميزة خاصة :

وكان الطلبة الشباب في هذه الجامعة وفي هذه المرحلة الزاهرة بالذات، هم عنصر القوة والدفع في حركة العلم، وفي حركة السياسة والدولة معا ونسوق هنا نموذجا واحدا عن أهمية الدور التاريخي الثقافي والسياسي الذي أداه طلبة هذه الجامعة الساطعة في هذا العصر.

أدرك الخليفة عبد المومن بن علي الكومي الموحدي، حاجة الدولة الناشئة الملحة، وهي في طور النشوء والتثبيت، إلى مجموعة كبيرة من الطلبة الشباب يؤهلهم برفع مستواهم الثقافي والسياسي، والإداري، وإشباعهم بالخصوص بخصائص العقيدة السياسية والدينية، التي تقوم عليها وتتبناها الدولة الموحدية الناشئة.

اختار ثلاثة آلاف شاب من طلبة ابن يوسف، ومن مختلف جهات المغرب، وأعد لهم برنامجا خاصا للدراسة والتكوين الديني والسياسي، والحربي الذي يتطلبه تسيير الدولة وإدارة شؤون المجتمع؛ فقسم مواد الدراسة المحددة لهم على أيام الأسبوع، فيوم للعلوم العربية والتاريخ، ويوم لشؤون الدولة والمجتمع، ويوم للعلوم الرياضية، حساب، توقيت، فلك، إلخ.... ويوم للرياضة البدنية، والتدريب على الفنون الحربية، رماية، مسايفة، عدو، مطاردة، مصارعة، سباحة، ترويض وركوب

الخيل، وقد أسس جنان أكدال الشهير بمراكش، أساسا لهذا الغرض، أي إنجاز التدريبات العسكرية والبدنية لهؤلاء الطلبة الشباب.

كان الطلبة الثلاثة آلاف كلهم يحفظون كتاب موطأ الإمام مالك عن ظهر قلب، وفي يوم كل جمعة يتناولون كلهم الغذاء في القصر الخليفة عبد المومن، يقضون النهار كله في المناقشات والمباحثات السياسية والدينية.

ولما أتموا برنامج دراستهم وتكوينهم هذا، وزعوا على جميع مدن المغرب وجهاته، كرجال إدارة، وأطر أكفاء مسؤولين عن تسيير وتأطير الدولة والمجتمع وصيانة عقيدتها واتجاهها العام.

بهذه المأثرة السياسية الكبرى يكون هذا المسجد الجامع قد أدى أيضا دور مدرسة تكوين أطر الدولة، وقادة التسيير، والتأطير الثقافي والسياسي، في مجموع التراب الوطني، وكانوا هم حماة الدولة وقادتها ومؤطريها من الداخل في كفاءة علمية وقدرة إدارية وفهم ديني وإداري لمرامي الدولة وصيانتها وتحقيق أهدافها...(انظر الاستقصاء).

تعاون وتبادل ثقافي بين المؤسستين ابن يوسف والقرويين :

وخلال القرنيين 12 و13، ولو أن المغرب لهذه الفترة في حالة تقهقر اجتماعي – واصلت المؤسستان ابن يوسف، والقرويين مهمتها، كل في محيطها وفعاليتها المتوفرة وامتداداتها المختلفة ثقافيا وجغرافيا، تواصلت فيهما الدراسات العلمية الواسعة على المنهج التقليدي وتواجد فيهما وتخرج باستمرار عديد من كبار العلماء في مختلف التخصصات وآوت كل منهما مئات أو آلافاً من الطلبة، من مختلف الجهات، وكسبت القرويين صيتا واسعا، في عموم المغرب، فكان يقصدها الطلاب لاستكمال دراستهم وتخصصاتهم من الشمال إلى الجنوب، من مراكش نفسها ومن سوس ووارزازات. كما كان ابن يوسف بدوره يضم مئات أو آلاف من الطلبة، يملأون مدارس السكنى المخصصة لهم، وأحيانا لا تكفي، فيدبرون لأنفسهم مساكن جماعية في الأحياء الشعبية، أو في الفنادق القديمة.

كان الطلبة يأتون ابن يوسف من جميع أنحاء منطقة الجنوب من الشاوية وعبدة، ودكالة، إلى الرحامنة وأحمر، والسواغنة، وقبائل الحوز بأجمعها... إلى مجموع قبائل سوس وواررزازات، وجنوب الأطلس المتوسط، (أزرو، بني ملال، وآيت عتاب). ومن تخوم الصحراء وموريتانيا والسينغال.

ويمتد بعض الطلبة إذا أتموا دراستهم في ابن يوسف إلى القرويين لاستيعاب التوسعات العلمية في بعض المواد التي يتخصص، ويبرز فيها علماء متميزون هناك في القرويين.

كما كان يتم على مستوى العلماء تبادل الزيارات والاتصالات والمراسلات بين علماء ابن يوسف والقرويين، بصورة تتسم بروح التعاون والتبادل الثقافي في أحيان كثيرة بعيدا عن مركبات التفضيل والتفوق، ومساقط التعصب المحلي أو العرقي، كما يفعل البعض.

وكان يتوافد العلماء على مراكش من المغرب ومن الخارج خاصة في العصرين الموحدي والسعدي، بما في المقدمة مدينة فاس، فقد ذكر الدكتور محمد حجي في كتابه «الحركة الفكرية بالمغرب» (ج: 2 ص: 360) وما بعدها نماذج وصورا من تبادل الزيارات والوفادات بين علماء المدينتين، وجاء في قوله : «لا نكاد نجد نابها منهم إلا وقد أقام مدة طويلة أو قصيرة بمراكش، ودرس فيها وتعلم من أمثال أحمد المنجور، وعبد الواحد الحميدي، وأبي القاسم القاضي، وأحمد بن القاضي، وعلي ابن عمر السلاسي... وغيرهم كثير.

وإلى جانب ذلك، وقعت مناقشات علمية ومبادلة الرسائل والمذكرات، والمحاجات بين علماء مراكش، وفاس، حول قضايا غالبا فقهية، أو فتاوى حول قضايا فيها خلاف في الفهم والتأويل.

ومن ألطف المناظرات الكتابية والعلمية تلك التي وقعت بين علماء فاس وعلماء تارودانت في مباحثات علمية وأدبية وفقهية رائعة، أظهر فيها الرودانيون علما وبراعة وبلاغة وذكاء وحسا علميا رفيعا.

وظل التنافس مع ذلك بين المؤسستين الجامعيتين مستمرا من قديم، وبطول الزمان يتصاعد ويحتدم ثم يسترخي ويلين أحيانا أخرى،

وهو على العموم تنافس طبيعي صحي في أصله ومشروع بين مؤسستين تهدفان إلى مرمى واحد وتتسابقان إلى الارتفاع والتفوق أكثر، لولا ما يشوبه أحيانا من تعصب عنصري ومحاولة تميز عرقي، أو محلي جغرافي أو تنقيص زائد، أو ادعاءات غالبا من الفاسيين.

وتروى في هذا المجال حكايات كثيرة وصور لصراعات ومنافسات وتداعيات ومناقشات، سواء بين الطلبة، أو العلماء أنفسهم، وتحكى (مناظرات) عدة بين علماء من مختلف الجهات والمواقع وبين علماء أو طلبة فاسيين وغيرهم، كما تروى مناظرات ومناقشات شفاهية أو كتابية بين علماء فاس ومراكش، وغيرهم. ومن أهمها المناظرة الكتابية الطويلة التي جرت بين علماء تارودانت، إذ كان الأولون يحتقرون الآخرين، ويهينون معرفتهم، ومكانتهم ويستخفون بقدرهم العلمي، فجاءت رسائل علماء تارودانت إلى علماء فاس في مستوى رفيع، علما، وفكرا، ولغة وبلاغة، ومثل المحاورة التي تروى بين الطلبة الفاسيين والطلبة البدويين «الشلوح» بصفة خاصة.

وللاستملاح والاستلطاف في هذا السياق، نسوق هنا واقعة في الموضوع أشبه بنكتة لها طابع مراكشي واضح، وجرت مع فاسي بمراكش.

ذكر كل من الحلفاوي في كتابه «شمس المعرفة» والزروالي في كتابه : «شمس القلوب» كما ورد في موسوعة العلامة المرحوم عباس التعارجي في «الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام».

إنه جاء رجل من أهل مدينة فاس لزيارة الشيخ الولي سيدي أبي عمرو المراكشي، فالتقى به في فئة من الناس، فاستحضر الزائر معه من الأدب ما يستحضره الأذكياء، فسأله الشيخ عن البلد وسكانها، فقال له هذا الزائر المقيم من أقصى قلبه بالعقد المركبة على جهة التعجب والتعظيم : «الله الله إن جامع القرويين يكاد ينبع العلم من حيطانه».

وقد أحس أبو عمرو بتعالي مخاطبه وافتخاره بجامع فاس، فطلب منه إعادة العبارة ثم أجابه قائلا :

«الله الله، إن جامع علي بن يوسف يكاد ينبع السر من حيطانه» فانقطع كلام المتكلم حين ظهر له ما بين السر والعلم من فوارق.

هذا وقد نظم الحلفاوي كعادته مضمون هذا الحوار في قصيدة مطولة جاء في مطلعها :

شتان بين اكتحال العين وضعاً وما
بين كحولتها في الحسن والصور
والفرع مادام أصله له أمل
والأصل إن ضاع لا فرع بمعتبر
ومسجد يسكن السر حجارتها
أهلا بمن عرفت بالسر في الحجر
ببقعة لقبت من يعد إصلاحها
بمسجد من رياض الخلد منتشر
يغشى الفتى فرح من الدخول لها
فينتفي كل ما في القلب من كدر

أحياء جامعية لسكنى الطلبة... ومشاركة شعبية :

ومنذ عهد الموحدين وإلى المرينيين توافد الطلبة الأفاقيون إلى ابن يوسف للدراسة، ونما عددهم واتسع واكتظت بهم الساحة، وأصبح مشكل إيوائهم وسكناهم قائما يفرض نفسه. وكان أن أدرك المرينيون هذا المشكل الطلابي السكني على المستوى الوطني على الخصوص، في كل من مراكش وفاس وسلا، فبادروا بتأسيس أحياء وعمارات سكنية، لسكنى الطلبة الأفاقيين، تسمى آنذاك «مدارس» كان أهمها حي أو مدرسة ابن يوسف الواقعة شرقي وقبالة مسجد ابن يوسف مباشرة، والتي أسسها السلطان أبو الحسن علي ابن عثمان المريني. وكانت ولا تزال حتى الآن عمارتها وهندستها تحفة فنية ومعمارية كبيرة، ومعلمة تاريخية تشهد بمدى التقدم الذي بلغه المعمار البنائي الفني في هذه الفترة. فجاءت آية أفرغ فيها مؤسسها كل لتقدم الفني المعماري السائد في عصره، أرض مفروشة بالرخام الأبيض ونقوش على السقوف والجدران والأخشاب آية في الروعة والدقة والجمال. وتتكون من طبقتين تضمان معا 120 غرفة تضم كل غرفة طالبين

أو ثلاثـة، في وسطها صهريج جميل لاستقاء الماء. وفي الواجهة الشرقية قبة كبيرة فنية جميلة للصلاة وتداول الكتب والمذكرات الجماعية.

وأضيفت بعد ذلك إلى جانب هذه المؤسسة الفخمة عمارات أو بناءات إضافية لسكنى الطلبة في كل من أحياء سيدي أبي العباس والمواسين، وابن صالح، وتكون هذه البنايات ما يسمى اليوم بالحي الجامعي.

وغالبا ما يلتجئ الطلبة إلى سكنى الفنادق القديمة بالكراء خاصة في حي سيدي عبد العزيز وباب دكالة ودرب ضبشي.

ومن المأثورات الشعبية في مجال مساعدة الطلبة وإسعافهم أنه كانت مجموعة من العائلات بمراكش تتحمل طوعا تموين الطلاب، تتكفل عائلة بطالب فيقصد منزلها يوميا لتسلم وجباته الغذائية مجانا وإكراما للعلم وحملته. وهذه عادة أصلها من البوادي المغربية، خاصة في الجنوب، حيث يتوزع سكان القرية عددا من طلبة المدرسة، وتتولى كل عائلة تموين طالب واحد كأحد أفراد العائلة، وتسمى هذه المكرمة «الرتبة» أو تارتبيت بالشلحة.

واكتظت كلية ابن يوسف بنحو ألفين من الطلاب من مختلف جهات المغرب، وتوسع محيط الدراسة وارتفع مستواها وامتد إشعاعها الثقافي العلمي إلى كل مناطق الجنوب خاصة الضواحي كما تسجلت ارتباطات وسجلات ولقاءات علمية مع علماء مدارس سوس العلمية.

وكان للطلبة بنايات أو عمارات خاصة بسكناهم تسمى حينذاك مدارس، وهي بمثابة أحياء جامعية اشتهر منها أربعة :

1 – الحي السكني الأول القائم قبالة مسجد ابن يوسف نفسه شرقا، وهو المعروف بمدرسة ابن يوسف نسبة إلى المسجد الذي تجاوره، وهي عمارة سكنية أنيقة أفرغت فيها مناهج الهندسة المعمارية القديمة وروعتها من نقوش رائقة على الجبس والخشب وترخيم ودرابيز أنيقة، وهي من تأسيس أبي الحسن علي بن عثمان المريني من دولة بني مرين، وتضم نحوا من 120 غرفة كل غرفة تؤوي طالبين أو ثلاثة، إضافة إلى المسجد والمرافق الضرورية. وتتألف من طابقين وهي تحفة تاريخية

معمارية رائعة ومعمار أثري فاخر، مفتوحة الآن للسواح كمأثرة من أهم المآثر التاريخية بمراكش.

2 – مدرسة سكنية بحي المواسين تضم غرفا من طابق واحد.

3 – مدرسة أو حي سكني مماثل بحي سيدي بالعباس من طبقتين بناء عادي.

4 – حي سكني رابع خاص من حي ابن صالح.

وفوق ذلك وأحيانا كثيرة يضطر الفائض من الطلبة الواردين من مختلف الآفاق إلى السكنى ببعض الفنادق واتخاذ جملة من البيوت والغرف لإقامتهم وبالكراء مثل فندق كان معروفا لسكنى الطلبة بطريق سيدي عبد العزيز وفندق بدرب ضبشى وأحيانا يكتري الطلبة دارا كاملة للسكنى فيستقرون فيها جماعة.

مرحلة الإصلاح والتنظيم الجديد في المؤسستين :

واستمر التنافس بين المؤسستين الجامعتين طيلة أكثر من قرنيين، ما بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وإلى قرابة الثلث الأول من القرن الرابع عشر، وكان التنافس يأخذ أحيانا كثيرة صفة إيجابية تنصب على المباحثات والمناقشات العلمية وتبادل الفتاوى والآراء والزيارات وأحيانا مناظرات ومساجلات علمية أو شعرية، وظلت المفاضلة بين ابن يوسف والقرويين قائمة مستمرة بين العلماء والمثقفين والطلبة، وأحيانا حتى بين الأوساط الشعبية كالتجار والحرفيين والصناع.

وفي الواقع كان الفاسيون كثيرا ما يبالغون من جهتهم في تضخيم وتقديس مكانة القرويين، ويقللون من أهمية ودور ابن يوسف بشكل تعسفي، مشوبا ذلك كله بلمسة عنصرية ضد الجنوب عموما، و«الشلوح» بصفة خاصة، وكان المراكشيون ينافسون ولكن باعتدال وبموضوعية وتواضع.

ومع ظاهرة التراجع والضعف التي لفت المغرب كله في وضع متردي عام، خاصة بعد هزيمتي إيسلي وتطوان أواسط القرن التاسع عشر (1844 – 1858).

وفي ظل الحماية ومخططها الاستعماري لمحاربة الثقافة العربية ولغتها، تحت تأثير هذه الظروف التراجعية التعصبية، ارتفعت أصوات الحركة الوطنية للمطالبة بإصلاح القرويين وابن يوسف، وتطوير مناهجهما الدراسية، وما لبث أن صدر بالفعل ظهير بتنظيم الدراسة في المؤسستين تنظيما جديدا، بتاريخ 8 شوال 1357 موافق 1 دجنبر 1938، وأعيد النظر في مواد الدراسة وكتبها حسب اختصاصاتهم وكفاءاتهم؛ ووزع التعليم إلى ثلاثة أسلاك ابتدائي لمدة ثلاث سنوات والثانوي لمدة ست سنوات، والنهائي لمدة ثلاث سنوات. وقد فتح السلك النهائي هذا سنة 1941 موزعا إلى شعبتين الشرعية والأدبية.

وشمل برنامج ومخطط الإصلاح والتطوير في آن واحد الجامعتين معا ابن يوسف والقرويين. وكان أهل فاس حاولوا أن يقتصر النهائي على القرويين وحدها ليستكمل طلبة ابن يوسف سلكهم النهائي في القرويين، ولكن هذه المحاولة تمت مقاومتها من طرف طلبة وعلماء ابن يوسف تم إسقاطها في الحين وطبق السلك النهائي فيهما معا في آن واحد.

علماء مراكشيون في تسيير القرويين :

والجدير بالذكر هنا، أنه في إطار التجديد وترتيب تأطيره وتنفيذه، عين العالم محمد بن مبارك العلوي من مراكش رئيسا للمجلس العلمي بفاس، ورئيسا للجامعة والإشراف على إنفاذ برامج التصليح، كما عين إلى جانبه العالم السيد أحمد بوستة مفتشا عاما للدروس في القرويين، وذلك سنة 1940، ولهذا التعيين ولا شك دلالات ومعان وأهمها بروز كفاءة علماء مراكش.

وبهذا الصدد كتب الأستاذ عبد الهادي بوطالب يقول :

«وكان هدف السلطان محمد الخامس المغفور له من هذا التعيين أن يعطي القرويين دماً جديداً بإسناد رئاسة مجلسها العلمي إلى عالم من مدينة مراكش» (كتاب ذكريات وشهادات ووجوه) مطبعة النجاح 1993، ص: 552 - 553.

إلا أنه لم يلبث أن قامت ردة فعل استنكارا لهذا التعيين من بعض العلماء وطلبة فاس، واستنكروا تنحية الفضيلي والحريشي واستبدالهما بعالمين من مراكش.

وعلق عبد الهادي بوطالب على هذا الحدث مفسرا بقوله : «أعتقد أن السلطان الراحل قد اختار المرحومين مولاي مبارك العلوي وأحمد بوستة، وهما من ذوي الدراسات الأدبية المطعمة على أمل أن تنفتح جامعة القرويين على آفاق أرحب من تلك التي كان المجلس العلمي الفاسي المحافظ، يرغب في أن لا تتجاوزها بحكم تركيبه من فقهاء تقليديين. وقد كان مبارك العلوي وأحمد بوستة ينتميان فعلا إلى المدرسة الأدبية. وكانا شاعرين أديبين أكثر مما كانا فقيهين.

وجاء الأستاذ محمد بن عثمان المسفيوي لخدمة ابن يوسف :

أما بالنسبة لابن يوسف فبعد إقرار النظام الإصلاحي الجديد سويا مع القرويين سنة 1939 تعاقب على رئاسة الكلية اليوسفية ومجلسها العلمي كل من الأساتذة السادة – مولاي مبارك العلوي قبل نقله إلى فاس، ثم بوركبة محمد ثم عبد القادر المسفيوي، ثم جاء أهم تطور في عملية تطبيق النظام الجديد، بتعيين الأستاذ الكبير المرحوم محمد بن عثمان المسفيوي، وهو أستاذ أنجز دراسته العليا بمصر (دكتوراه في الأدب) القاهرة متخصصا في الآداب، مشبعا بروح الثقافة العربية، ولغتها وآدابها، مع انفتاح واسع على حب التطوير والحداثة والمنهجية الجديدة.

وتم تعيين السيد محمد بن عثمان مديرا ورئيسا للكلية اليوسفية، ورئيسا لمجلسها العلمي أواخر سنة 1942، وبذل في الحال مجهودا فائقا متواصلا ومتحمسا لتطوير ابن يوسف، دراسة ومناهج وتنظيما وتوزيعا للدروس والحصص واختيار المواد العلمية وكتبها، متحمسا بالغا لرفعها إلى مستوى أعلى من القرويين. وكان شديد الاعتزاز بابن يوسف ودورها العلمي، إلى درجة التعصب والحماس الفائق لدوره ومكانته العلمية والثقافية ويرى أن كلية ابن يوسف ويسميها هو جامعة

ابن يوسف خدمت الثقافة العربية، واللغة العربية، والدين الإسلامي، خاصة في الجنوب المغربي على طوله وعرضه، ما لم تخدم القرويين!.. وألف دفاعا عن فكرته واعتزازه بابن يوسف، كتابا في الموضوع أسماه «الجامعة اليوسفية» استعرض فيه تاريخ وأمجاد جامعة ابن يوسف وما آوت وأخرجت من فطاحل العلماء وكبار الأدباء، على طول تاريخها وتفوقها على القرويين.

وكان يقف إلى جانبه في عمله الإصلاحي الجاد هذا من أجل تطوير ابن يوسف وإحياء مجدها، كل من الأستاذ الجليل العالم التقدمي المجاهد شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي، والسيد المعمري وزير القصور الملكية.

وانصرف ابن عثمان بكليته إلى خدمة جامعته وأقر فيها السلك النهائي بشعبتيه، والتف حوله العلماء والطلبة جميعا. وكان هو نفسه يلقي دروسا في الأدب، درست عليه أنا شخصياً فصولا من كتاب البيان والتبيين للجاحظ، والكامل للمبرد، وكان بالفعل موسوعة علمية وأدبية لم يعرف ابن يوسف مثلها منذ زمان، فعرفت جامعة ابن يوسف في عهد رئاسته وتسييره ازدهارا كبيرا، سواء في ضبط التدريس ومواده وتجديدها أو في منهج الدراسة أو في ارتفاع عدد الطلبة المنضمين للجامعة من كل أنحاء المغرب، خاصة في الجنوب وضواحي مراكش.

وقد سجل الأديب الشاعر مولاي الصديق العلوي موقف وجهود ابن عثمان، وأشاد بجهوده الاستثنائية لترقية ابن يوسف وإحياء مجدها الثقافي، في قصيدة يسوق فيها التهنئة للجميع، جاء فيها قوله :

سر القريض رئيسنا المحبوب، إذ كرمت ناسه
وأفضت فيهم من دواعي البشر ما أدهقت كأسه
دم يارئيس وأنت أعرف من تقدم للرئاسه
وأجل من أحيا المعارف في ابن يوسف حين ساسه

وقد رفع الرئيس ابن عثمان بالفعل من مكانة ابن يوسف وصنف النظام الجديد بحيوية وفعالية وأقر فيها النهائي بشعبتيه الأدبية والشرعية، رغم معارضة الكثيرين من الدوائر العليا.

وأشاد بعمله الكبير هذا كل من الأستاذ عبد الله الجراري في كتابه «التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين» والدكتور أحمد شوقي بينبين وكذلك الأستاذ أحمد متفكر.

وعرفت جامعة ابن يوسف في عهد رئاسته فعلا ازدهارا كبيرا سواء في ضبط التدريس، أو في منهج الدراسة، أو في ارتفاع عدد الطلبة المنضمين للجامعة من كل أنحاء المغرب خاصة نواحي الجنوب.

وعلى الواجهة المقابلة كان كل من الأستاذ محمد الفاسي وعبد الهادي التازي وعبد الهادي بوطالب يدافعون بحماس وعصبية شديدة عن القرويين، وكان محمد الفاسي وهو إذ ذاك رئيس القرويين يعمل على أن تبقى ابن يوسف تابعة للقرويين، كمجرد فرع تابع. ويحتفظ بالسلك النهائي بشعبتيه للقرويين، كمجرد فرع تابع، ويحتفظ بالسلك النهائي بشعبتيه للقرويين، ولكن ابن يوسف بالمقابل كانت تشق طريقها للنمو والتطور، ويتسع نفوذها وإشعاعها في مجموع المنطقة، وكان الرئيس ابن عثمان بحماسه البالغ وحدبه الحاني عليها، قد أعطاها دفعة قوية، وموجة عارمة من التطور والتموقع العلمي والثقافي في المحيط العام، وبعث في الطلبة حماسا وتماسكا وشعورا بالغبطة والأمل، كما وجد الذين يدافعون عنه، وعن جامعة ابن يوسف في الدوائر العليا من القصر والدواوين، وبعض الأوساط الأخرى سندا ومبررا في الجدية التي مارس بها الأستاذ الرئيس ابن عثمان مهمته، وفي الإخلاص الوفي النموذجي والمتحمس لإحياء جامعة ابن يوسف وبعث مجدها ومكانتها العلمية ودورها الثقافي الرائد.

ومات الرئيس ابن عثمان فجأة وتوقف المشوار :

وفي غمرة معركته لتطوير كلية ابن يوسف ودفاعه المستميت من أجلها، وجهوده المتواصلة مع الدوائر العليا في الدولة، كانت المقادير له بالمرصاد، فعاجلته المنية فجأة بسكتة قلبية، وهو يستضيف في منزله مجموعة من كبار الشخصيات، وموظفي الدولة، خاصة، المرتبطين

بقضايا التعليم والقصر الملكي، وهم في حفلة عشاء بمنزله، فكان أن فاجأته الأزمة القلبية أثناء الشاي وأمام ضيوفه، ولم تلبث الأزمة أن انتهت بتوقف قلبه، وموته بعد برهة وجيزة، فكان موته المفاجئ نتيجة نفسية، وسياسية، حاصرته أياما طويلة قبل ذلك...

وكان موته المفاجئ هذا على أي حال خسارة لابن يوسف وتوقيفا لجهود استثنائي كبير لتطويره، وإحياء مجده العلمي، وقطعا لمشوار سباق في سبيل تنمية المسار المعرفي والتحديثي لجامعة ابن يوسف التي فقدت رئيسا من ألمع وأنجح وأشجع رؤسائها وهي في أشد الحاجة إليه، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

طلبة ابن يوسف في معركة إصلاح الجامعة :

انبعاثاً من الروح العربية الإسلامية العريقة المتمكنة في أوساط طلبة ابن يوسف، والتي استأثرت بتوجهاتهم العامة الثقافية والسياسية، فإن هؤلاء الطلبة لم يتجاهلوا الوضع الاستعماري الذي تعيش البلاد كلها تحت وطأته، والتحكم الإقطاعي المتسلط على مراكش ونواحيها، إلى إقليم وارزازات، من طرف خديم الاستعمار الأول التهامي الجلاوي باشا مراكش، وقيدوم القواد الإقطاعيين المتعاونين في الجنوب المغربي كله.

وفي هذا السياق قام الطلبة بقيادة وتأطير نخبة واعية متقدمة من صفوفهم بتحركات نضالية مستمرة، تركزت أساسا على واجهتين :

أولاهما : استمرار الدفع بحركة الإصلاح والتطوير والتحديث في المناهج العامة للدراسة في جامعة ابن يوسف.

وثانيهما : مناوأة التسلط الإقطاعي البالغ للباشا الجلاوي الذي أطلقت له الإدارة الفرنسيةعنان التحكم والسيطرة ومن جهة أخرى، مواجهة الإدارة الفرنسية الاستعمارية التي تحاول بشتى الوسائل وبواسطة مندوبها بمراكش التدخل المستمر في قضايا كلية ابن يوسف ومحاولة الحد من تحركات وانبعاث روحها الثورية التي بدأت تنتفض

وترفض، والحد أيضا من توجهها العربي الإسلامي المنبعث بقوة ويقين.

وظلت الاصطدامات الطلابية متواصلة مع الباشا الجلالوي وإدارة المندوب الفرنسي طيلة سنوات النصف الثاني من الأربعينيات بالخصوص. وفي سنة 1950 وقع الاصطدام العنيف الأكبر بين الطرفين.

وتواصلت نضالات الطلاب ومواجهاتهم مع الباشا والإدارة الفرنسية دفاعا عن مصالحهم وحقوقهم الدراسية؛ وتصاعدت طيلة سنوات النصف الثاني من الأربعينيات وتيرة قمع الطلاب، واتسعت دائرة المتابعة، وحركة الجواسيس والمخبرين أحيانا، من بعض الطلبة أنفسهم، الذين عرفوا واشتهروا بأنهم جواسيس يرتبطون بالمخابرات خاصة من الآفاقيين الواردين من نواحي قبائل أحمر والرحامنة وعبدة ودكالة.

الاصطدام العنيف مع الباشا الجلاوي في قلب الستينية :

غير أنه في سنة 1950، وقع الاصطدام العنيف الأكبر بين الطلبة والباشا الجلاوي، ومن المفارقات الدالة هنا، أن الطلبة اليوسفيين قاموا بإضراب شامل عن الدراسة، ليس دفاعا عن مطالب مباشرة لهم، وإنما تعبيرا عن تضامنهم مع طلبة القرويين بفاس، الذين كانوا في صراع مماثل مع إدارتهم من أجل مطالب خاصة بهم، فقاموا إثر اعتقال أفراد من الطلبة بإضراب احتجاجي.

وإثر اعتقال أعوان الجلاوي لبعض الطلبة، قام الطلبة برد فعل مباشر، فنظموا مظاهرة حاشدة من الطلاب أجمعين. وانطلقت من مسجد ابن يوسف وتوجهت إلى دار الجلاوي، بباب دكالة، وانضاف إليها في الطريق جمهور آخر واسع من المواطنين.

وعلى باب دار الجلاوي «الستينية» وقف المتظاهرون في حشد كبير يرددون شعارات الحرية والإنصاف، وأرسل الجلاوي من داخل قصره

«الستينية» يطلب منهم وفدا لمقابلتهم، فتكوَّن وفد كبير، يتعدى الثمانين؛ فقادهم الأعوان إلى قلب الستينية حيث الباشا الجلاوي وبعض حواشيه المقربين، وما كادوا يقفون أمامه حتى سألهم في توبيخ وانفعال: لماذا تقومون بالإضراب؟ فردوا عليه مجيبين : تضامنا مع إخواننا طلبة القرويين بفاس، دفاعا عن حقوقهم وحماية لمصالحهم، وتعبيرا عن روح الأخوة والتضامن التي يأمر بها ديننا الحنيف.

وما كان إلا أن انفجر عليهم حالاً وفي غضب قائلا : «لا حق لكم في هذا الإضراب وأنتم مخطئون غالطون أشد الغلط لا حق لكم في هذا التضامن الذي لا معنى له ولا فائدة».

الانبعاث الثقافي الفائق للطلاب :

وفي فضاء الانبعاث الدراسي والثقافي الذي حركه ووفر شروطه المرحوم الرئيس ابن عثمان المراكشي المسفيوي، إذ كان رحمه الله يهمه إلى جانب تنظيم الدراسة وترقية مناهجها ومحتواها أن يخلق لدى الطلبة مناخا ثقافيا واهتمامات علمية أدبية وفنية إلى جانب الدروس الرسمية استكمالاً لتكوينهم، كانت له خزانة كتب هامة وكبيرة، كان يفتحها للطلبة يعيرهم الكتب الثقافية المختلفة والمجلات العلمية والأدبية الواردة من الشرق، وأنا شخصيا استعرت من خزانته وبإذنه، عدة كتب للقراءة، أذكر منها دائرة معارف ومحمد وجدي، ومجلة الحديقة، ودواوين شعراء العراق، فكان أن تفتقت لدى الطلبة رغبة المعرفة، وإرادة التثقيف الذاتي، بناء لتكوينهم الثقافي وتزويدهم المعرفي، اعتمادا على القراءة والمطالعة.

وبما أن مصر على الخصوص كانت في هذه الفترة هي المركز العربي الأول للإشعاع الثقافي ومصدرا للتنوير، بالإبداعات المختلفة، والإنتاجات العصرية المفتوحة، بفضل جملة هامة من فطاحل العلماء والأدباء وعباقرة الباحثين والكتاب المبدعين، والشعراء أمثال طه حسين، محمود العقاد، مصطفى الرافعي، عبد القادر المغربي، أحمد حسن

الزيات، الدكاترة زكي مبارك، والمازني، ومن الشعراء أحمد شوقي، حافظ إبراهيم محمود غنيم، عزيز أباظة.

وكانت لبنان هي المعين الثقافي الإشعاعي في المشرق العربي، بعد مصر وإلى جانبها، وكانت منتوجات ومطبوعات لبنان الثقافية والأدبية موضوع اهتمام وتتبع الطلبة اليوسفيين.

وكانوا يتسابقون إلى هذا المعين الثقافي الأدبي الفتي الفائض من المشرق العربي، مصر ولبنان، والعراق، ينهلون يدرسون يتبادلون الكتب والمجلات يشترونها، ويستعيرونها؛ فتكون لدى مجموعة خاصة من الطلبة وليس كل الطلبة هاجس المعرفة والتثقيف الذاتي، فتكون بالفعل مناخ ثقافي حي تسود فيه رغبة الخروج من الروتين العلمي القديم، وإرادة التحرر من المفهوم التقليدي والمضمون القديم للدراسة والتعلم بصفة جامدة متحجرة متقوقعة على النحو والفقه والفرائض وأحكام البيع والشفعة والحساب والتنجيم والتوقيت وأيضا بتأثير جماعة قليلة من الأساتذة.

واستطاعت كلية ابن يوسف مع ذلك أن تتحول بالمضمون الثقافي لابن يوسف، وأن تعطي نخبة متنورة من الشباب والأساتذة النبهاء والمناضلين الوطنيين والسياسيين الأشداء، ومن الأدباء والشعراء والباحثين، فكان أن تأصلت الروح العربية والإسلامية في روح الطلبة وتفكيرهم، وأصبحوا بالفعل موئل الثقافة العربية وحملتها وحماتها، وتلبسوا للإيمان عمق الثقافة الإسلامية بمضمونها المتحرر الدفاق.

وذلك ليس غريبا في هذا السياق أن تعطى جامعة ابن يوسف جملة من أبنائها الطلبة الثوريين الأحرار. ولم يلبثوا أن ساهموا في بناء وتأسيس حركة المقاومة الثورية ضد الاستعمار وعملائه، ثم حركة جيش التحرير، بل أخذوا مكان القيادة والتسيير والتأطير، كما أصبح عدد منهم مرجع الدعوة الإسلامية بالمضمون السلفي، المتحرر والمؤتمن على القيم والأخلاق الوطنية والدينية.

ولذلك لقيت كلية ابن يوسف وطلبتها من الاستعمار الفرانكفوني ما لقوا من المحاربة العنيدة التي انتهت، بعد سنوات من الاستقلال إلى التهميش، والتهوين والإقصاء، ثم التصفية النهائية أخيرا لابن يوسف ودراسته ومضامينه العلمية والأدبية والإسلامية، ذات الطابع العربي الوطني والإسلامي الصافي القح.

ابن يوسف مركز الثقافة العربية المتفتحة وموئل الإسلام الرصين :

وفي فضاء الانبعاث الثقافي الذي أرسله ووفر شروطه المرحوم ابن عثمان تعزز الاهتمام بالثقافة العامة العربية والإسلامية، إضافة إلى الدروس التكوينية العادية التي يتلقاها الطلبة بين سواري وردهات المسجد.

وبما أن مصر على الخصوص كانت في هذه الفترة هي المركز العربي الأول للإشعاع الثقافي، ومصدر التنوير بالإبداعات المختلفة والإنتاجات العصرية المفتوحة، علمية وفنية وأدبية وفكرية، تحت تأثير فطاحل كبار وعباقرة عظام : محمود العقاد، طه حسين، عبد القادر المغربي، مصطفى الرافعي، أحمد شوقي، حافظ إبراهيم، المازني أحمد الزيات، ومن الشعراء بدر شاكر السياب، الرصافي حافظ إبراهيم، نازك الملائكة، فدوى طوقان، الكاظمي، الشابي، زكي أبو شادي، وغيرهم....

كتب متنورة واقعة في مفاهيم ومقولات العصر، غارقة في مضامينه ودلالاته، ضاربة إلى آفاق ومجلات ودوريات على نفس السياق.

فكان الطلبة يتسابقون إلى هذا المعين الثقافي النابع بغزارة من المشرق العربي، مصر ولبنان والعراق، ينهلون يدرسون يتعلمون يتبادلون الكتب والمجلات، يشترونها أو يستعيرونها من خزانة الجامعة في محيط الجامعة اليوسفية، وعي ثقافي، وحماس للتنور بالعلم، والمعرفة العامة خارج وفوق الدروس الرسمية، والإحساس بضرورة الخروج والتحرر من المفهوم التقليدي القديم للدراسة، والتعلم والتحصيل بصفة جامدة، متحجرة.

كنا نتبادل الكتب الثقافية الشرقية، ندرسها جماعيا أحيانا، في حلقات خاصة. مثلما كنا نفعل بالنسبة لمواد الدروس العادية، كما نتبادل المجلات المصرية واللبنانية (الهلال، الكاتب، الأديب، الرسالة، الحديقة، وغيرها....).

وهكذا تحول المضمون الثقافي لجامعة ابن يوسف، وتحولت اهتمامات فئة هامة من الطلبة. واستطاعت أن تعطي نخبة من العلماء المتنورين والأساتذة النبهاء والمناضلين الأشداء، متحررة من الطراز التقليدي للتعليم القديم ومحتوياته.

وبفضل ذلك تأصلت وتعمقت لدى هذه الفئة من الطلاب الروح العربية الإسلامية، وتشبع تفكيرهم بقوة الإيمان بالعروبة والإسلام، ولغته وثقافته، وبالمضمون التحرري للثقافة العربية الذي يرتكز على فهم الواقع الاستعماري للمغرب وبالرغبة في الانخراط في حركية العمل النضالي التحريري، فتأصل وضع ابن يوسف وطلبته ودوره كمركز قوي للثقافة العربية الأصيلة، ومرجع للدعوة الإسلامية، ومؤسسة مؤتمنة على القيم والأخلاق الوطنية والدينية.

طلبة ابن يوسف في معركة التحرير الوطنية :

واستمرارا للخط النضالي الذي تقمصه طلبة ابن يوسف، وسيرا مع قرارهم بالانخراط في معركة الشعب ضد الاستعمار والإقطاعيين والخونة والعملاء والأعوان من حوله.

أخذ الطلبة أو فئة طلائعية منهم بالأصح، يفكرون في العمل الذي يجب عليهم أن يقوموا به في وجه الاستعمار وعملائه خاصة بعد حوادث دجنبر 1952 إثر الإضراب الذي قررته الحركة الوطنية احتجاجا على اغتيال الزعيم النقابي التونسي فرحات حشاد، وأدى إلى

مقتلة دامية في حي كاريير سنترال بالدار البيضاء، خلفت نحواً من ثلاثة آلاف شهيد.

أخذ الطلبة يفكرون، ويفكرون، ويرون أن الاتجاه إلى عمل ثوري هو السبيل الوحيد المتبقي والمفتوح ضد عنف وغطرسة الاستعمار الفرنسي، فأخذا ينظمون اجتماعات خاصة على هذا السبيل بين جماعة خاصة وقليلة من الطلبة.

والغريب من الأمر أن أخباراً تسربت عن هذه الاجتماعات والتنظيمات الدائرة فيها، إلى اللجنة التنفيذية المؤقتة لحزب الاستقلال فوجهت إليهم وفدا منتدبا لتحذيرهم، بل تهديدهم بموقف صارم من الحزب إن لم يكفوا، وكان الوفد من شخصين أحدهما البشير التعارجي المحامي بالدارالبيضاء، فعقد اجتماعا معهم بدار المرحوم الصديق الغراس، لكن... دون جدوى؛ إذ الطلبة قرروا وجهتهم وأخذوا اختيارهم ومضوا لسبيلهم الثوري... دون تردد ولا تراجع.

وما كادت تأتي أحداث 1953 وتنطلق المقاومة حتى كان لفيف من هؤلاء الطلبة في المقدمة، بل تحولوا بسرعة إلى موقع القيادة والتسيير، والتخطيط العام، والتنظيم الداخلي السري لحركة المقاومة كلها في الوطن بأسره.

ويأتي في المقدمة أخونا الفقيه محمد البصري الذي كان من مؤسسي المقاومة، ومخططيها، والمشرفين على تنفيذ أكثر عملياتها، وإلى جانبه مولاي عبد السلام الجبلي، ومحمد الفيكيكي، وآخرون مثل : بوشعيب الحريزي، وبوشعيب البيضاوي، ومحمد بن سعيد وإبراهيم التزيتي وآخرون...

وهذه ظاهرة خاصة بارزة من دور وعمل طلبة جامعة ابن يوسف ومساهمتهم الفعالة في حركة التحرر الوطنية من المقاومة إلى جيش

التحرير، وهي تجسم مفارقة سياسية بارزة بين جامعة ابن يوسف وجامعة القرويين. إذ القرويين أو طلبتها بالأصح لم يساهموا في حركة المقاومة أي مساهمة تذكر، ولم يبرز منهم في صفها أي واحد إذ استثنينا المرحوم علال الفاسي خريج القرويين الذي ساهم هو بدوره في المقاومة، لكن من الخارج، من القاهرة إلى جانب محمد بن عبد الكريم الخطابي، رئيس مكتب المغرب العربي للمقاومة والتحرير.

إذن دور قيادي من حركة المقاومة قام به لفيف من طلبة جامعة ابن يوسف... دور تنظيمي، ودور سياسي... ودور ريادي فاعل، أدوار فاعلة ومؤثرة، وبطولية حقا، لم يقم بمثلها أو حتى قريب منها طلبة القرويين أو أية مؤسسة علمية أخرى.

وهذه مفارقة هامة وفريدة، تلفت النظر، وتضع اليد على الفوارق بين المؤسستين، في مضمون التربية والثقافة التي تسلكها كل منهما...

هذه المقاومة الطلابية الخالدة تعتبر تاريخا مجيدا، إضافة إلى جانب آخر هو أن أغلب طلبة جامعة ابن يوسف هم أبناء الجنوب المغربي، وهذا الجنوب المغربي سواء الغربي منه والشرقي هو منطلق كثير من حركات التحرير، والثورات، بل هو المنشأ والمدرج الذي نبعث منه، وانطلقت كل الدول المغربية الكبرى، التي أنجبت ثقافة وحضارة المغرب، وعظمته السياسية، والعلمية الرائعة، من ذول المرابطين والموحدين والمرينيين والسعديين وإلى دولة العلويين، التي انبثقت من الجنوب أيضا من سجلماسة وتافيلالت، وانحدرت إلى مدينة مكناس في عهد المولى إسماعيل، ثم استقرت في عاصمتها الكبرى مراكش، التي نقل كراسي الخلافة إليها السلطان المراكشي العالم سيدي محمد بن عبد الله، الذي كان يحب مراكش، ويعجب بسكانها، وعلمائها، وكان أبناؤه وأحفاده طلابا في جامعة ابن يوسف بمراكش...

المراجع الأساسيــة لهـذا البحث

1 – ابن خلدون : **كتاب العبر الجزء السادس.**

2 – الناصري : **الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى** الأجزاء 2، و3، و4.

3 – المراكشي : **المعجب في أخبار الأندلس والمغرب.**

4 – ابن عثمان المراكشي : **الجامعة اليوسفية في تسعمائة سنة.**

5 – العباس بن إبراهيم التعارجي : **الأعلام بمن حل مراكش من الأعلام.**

6 – عبد الهادي التازي : **القرويين المسجد والجامعة.**

7 – ابن أبي زرع : **روض القرطاس.**

8 – الدكتور مؤنس : **المساجد الخاصة.**

9 – محمد الموقت : **الرحلة المراكشية.**

10 – الدكتور محمد حجي : **الحركة الفكرية والثقافية على عهد السعديين.**

11) إبراهيم الهلالي : **مراكش والإشعاع الفكري لجامعة ابن يوسف.**

12 – **كتاب تاريخ المغرب** للأستاذ الباحث هنري طيراس : ج. 1.

Histoire du maroc, Par Henri Terrasse. Tôme I.